

الروائية في المدونة السردية النهضوية

- دراسة في تداخل الخطابات -

من إعداد الطلبة: لولو فايزة مدير الأطروحة: أ / د: عبد الوهاب شعلان

كلية الآداب واللغات جامعة محمد الشريف مساعديّة - سوق أهراس

قسم: اللغة العربية وآدابها التخصص: أدب عام ومقارن

الدراسة:

شكل النصف الثاني من القرن التاسع عشر منعرجا حاسما في تاريخ المجتمع العربي، حيث شهد تحولات عدّة على مستويات عديدة، انتقل على إثرها من حالته التقليدية إلى حالة جديدة، ووضع جديد؛ يتميّز بالمساءلة والمراجعة والتحوّل حيناً؛ والحنين إلى الماضي الزاهر حيناً آخر، فعلى المستوى الأدبي تأسّس وعي جديد من الكتابة النثرية تناهض الكتابة التراثية ذات النزعة الخطابية، والنبرة الشعرية المتعالية، فقد بدأت المؤسسة الأدبية تتحوّل من ثقافة الشعر إلى ثقافة النثر، ومن ثمّ ظهرت إسهامات كتابية ذات توجّه نثري-سردى- تؤسّس لذاتها، معلنة عن نفسها بشيء من الريّة والحذر؛ الناتج عن حساسية المرحلة التاريخية من جهة، وحساسية الثقافة الأدبية السائدة من جهة أخرى، ومن جهة ثالثة ظهور متغيّر جديد في الساحة العربية هو المتغير الغربي.

ضمن هذه الأوضاع المرتبكة؛ تأسّست المدوّنة السردية النهضوية بخصوصيات معيّنة استجابة لطبيعة المرحلة، واستثمارا للإمكانيات المتاحة، فجاءت محتشمة من الناحية الفنيّة، مغلّبة الفكري على الجمالي، فهي في حقيقتها أطروحات فكرية، لكنّها آثرت أن تمرّر طموحاتها الفكرية ومواقفها الإيديولوجية عبر قناة الرواية؛ اعتقادا منها أنّ الرواية أكثر الأجناس الأدبية قدرة على احتواء قضايا

المجتمع وملايساته، وأكثر استيعاباً لتناقضاته وصراعاته، كما أن تحوّل الذائفة الأدبية من الشعر إلى النثر كان محقّزاً كبيراً لدى هؤلاء لطرق الكتابة السردية الروائية.

آثرنا في رسالتنا هذه الموسومة بـ: "الروائية في المدوّنة السردية النهضوية- دراسة في تداخل الخطابات" أن نتجاوز الفكرة السائدة من أن السرد العربي الحديث يبدأ من رواية "زينب"، بحكم امتثالها لشروط النوع الروائي كما أصّلت له النظرية الروائية الغربية، محيلين بذلك إلى نصوص النصف الثاني من القرن التاسع عشر؛ التي شكّلت بحق أرضية تأسيسية انطلقت منها الرواية العربية فيما بعد معلنة عن نفسها.

ومن ثمّ؛ فقد انصبّ بحثنا على تلمّس بعض خصوصيات الجنس الروائي في هذه النصوص، من خلال طرحنا إشكاليات أساسية؛ أردنا الإجابة عنها في ثنايا هذه الدراسة. من هذه الإشكاليات:

إلى أي مدى تحقّقت الروائية في المدوّنة السردية النهضوية؟ بمعنى؛ كيف اقتربت هذه النصوص من الجنس الروائي بخصوصياته الجمالية ومضامينه الفكرية؟ إلى أي حدّ استطاعت هذه المتون أن تطوّر النوع الروائي لطرح أفكارها عن النهضة العربية في تلك الفترة؟ وكيف تحايث الفكري والروائي في تلك الكتابات السردية؟

ومن جهة أخرى: كيف كان التعالق النصّي والتداخل الخطابي ممارسة جمالية فعّالة ومثمرة لتحقق الروائية في تلك الأعمال؟

للإحاطة بهذه الإشكاليات و بسطها بشيء من التحليل والمناقشة، والأخذ والردّ، قسّمنا بحثنا إلى: مدخل وأربعة فصول، تداخل فيها النظري بالتطبيقي وفق ما تستدعيه الدراسة، وما تمليه أهدافها. إضافة إلى المقدمة والخاتمة التي احتوت نتائج الدراسة وبعض الاقتراحات.

وقد ارتأينا أن يكون المدخل عتبة تأسيسية للموضوع؛ يتسنى لنا من خلالها البحث في "الروائية" أي ما يجعل من عمل أدبيّ ما رواية، ولذلك كان تحت عنوان: "ماهية الرواية" ناقشنا فيه

خصوصيات الجنس الروائي باعتباره خطاباً أدبياً حديث التشكل والولادة مقارنة مع الأجناس الأدبية الأخرى، حيث بسطنا البحث والتقصّي في الجوانب الفكرية والسوسيوثقافية التي يمكن أن تجد صداها في الرواية، ليس كبناء فنيّ فحسب؛ وإنما كرؤيا متكاملة للعالم، استحضرنّا في هذه العتبة علاقة الرواية بالإطار المرجعي أو النسق الثقافي، متسائلين عن طبيعة هذا النسق من حيث بنيته الفكرية وخصوصيته التركيبية المتعددة، ثمّ علاقة الرواية بالواقع ومدى تجاوزها فكرة الانعكاس إلى الهضم والتفكيك ثمّ إعادة البناء، كما حاولنا أن نرصد ما يميّز الرواية عن الأجناس الأخرى السابقة لها من حيث البناء الفني (الزمان، المكان، الشخصيات، اللغة، الرؤيا....) وكذا من حيث آلية التعدّد، باعتبارها آلية أساسية استطاعت أن تُخرج اللغة من حقلها القاموسي المحنّط، إلى حقول معرفية وإيديولوجية متعدّدة، فصارت الكلمة في الرواية موقفاً إيديولوجياً ملموساً -بتعبير باختين-

والرواية من حيث علاقتها بالتاريخ -وباعتبارها رديفته في الظهور- قد اقترنت به منذ البداية لاشتراكها معه في اهتمام كل منهما بجوهر واحد هو الإنسان بمفهومه الشامل والعام، فقد تداخلت الرواية بالتاريخ في ظهورها، وهو ليس تداخلاً اجترارياً لما قاله التاريخ، بل هي معنية بما لم يقله التاريخ أو هي مصحّحة لذلك، الرواية تُعنى بالجوانب المنسية في علم التاريخ.

أخيراً؛ حاولنا أن نرصد كيف تتجلّى الرؤيا أو الإيديولوجيا في الرواية، تبين لنا أن هناك فرقا بين الإيديولوجيا في الرواية والرواية كإيديولوجيا، كما أن الإيديولوجيا حاضرة بالضرورة في كل الأعمال الإبداعية، لكن الفنّان الحقّ المتمكّن هو الذي يستطيع أن يستر إيديولوجياته في عمله الفنيّ حتّى لتبدو مكوّناً جمالياً مكّملاً للعناصر الفنيّة للأعمال الإبداعية.

أمّا الفصل الأول؛ فكان بعنوان "المدوّنة السردية النهضوية -التشكلات والمعوقات-" بحثنا من خلاله عن محفّزات تشكّل هذا النمط الخطابي، ومدى طواعية الجوّ العام في تلك الفترة لاحتضان الجنس الروائي، حيث تبين لنا -بعد الدراسة- أن المدونة السردية العربية تتجاوزها سلطتان - تكاد أن تكونا بالقوّة نفسها- من جهة؛ كانت هناك محفّزات للنشأة؛ لكن في المقابل؛ كانت هناك عراقيل أعاقَت هذه النشأة، وقد تجلّت محفّزات النشأة على مستوى الإطار السياسي، حيث أسهم مُجدّ علي

باشا من خلال إصلاحاته السياسية والاجتماعية في صنع أرضية متحوّلة، تستجيب لفكرة التحديث الآلي والاقتصادي والثقافي، كما انعكس ذلك أيضا على ظهور ما يسمّى بفكرة المدينة المتحوّلة عن البداوة، وهنا بدأت ملامح المجتمع الحديث تتشكّل وتظهر في هذه المدينة. أيضا على المستوى الفكري، رأينا حراكا فكريا محتدما في تلك الفترة، ترواح بين الديني والعلماني والتأصيلي والحداثي، فظهر في الساحة بعض المفكرين الذين حملوا لواء التحديث من هؤلاء: مُجد عبده، الطهطاوي، الأفغاني، قاسم أمين، مصطفى السيد، شبلي الشميل، الشدياق..... وغيرهم.

أما عن الإطار الأدبي؛ فقد أسهم التعريب والترجمة في إنتاج نصّ أدبي مطعم بروح الرواية الغربية، أغرى الذوق الأدبي السائد، حيث استنفر القراء المرويّات السردية التراثية، فاجتهدوا بكثرة إلى هذه الروايات المترجمة، التي أفردت لها مساحات خاصة على واجهات الجرائد والمجلاّت التي بدأت تصدر بفعل تواجد المطبعة والطباعة، ومن ثمّ تحوّل الجمهور من طابعه التقليدي المحافظ؛ إلى جمهور جديد له رؤيا خاصة، وذائقة خاصّة أيضا.

وقبل البحث في الإطار المرجعي للمدونة السردية النهضوية، ارتأينا إثارة إشكالية التأسيس الروائي بين التأصيل العربي والأثر الغربي، حيث مثلت هذه الإشكالية نقطة خصومة ونقاش بين رواد النقد العربي الحديث والمعاصر، الذين تباينت رؤاهم بين من يحاول أن يجد لهذا الجنس الطارئ جذورا أدبية وسردية في التراث العربي، ومن ثمّ يكون هذا الجديد امتدادا طبيعيا لتلك الجذور، وقد وجد هؤلاء ضالّتهم خاصّة في جنس المقامة وبعض الأخبار والسير الشعبية. أما رواد التحديث؛ فقد انتصروا للمؤثر الغربي - باعتباره متغيّرا دخيلا وفد إلينا من الغرب عن طريق الترجمة الناجحة عن الاحتكاك مع الثقافة الغربية -.

إلا أنّ النقد المعاصر تجاوز هذه الثنائية العقيمة، وقدم رؤيا شمولية متكاملة متفحّصة للقضية، تجلّى ذلك عند كل من جابر عصفور وفيصل درّاج وعبد الله إبراهيم، وصبري حافظ، وقد اتّسمت دراسة هؤلاء بالدقّة والروح العلمية، وربط الظاهرة الأدبية بسياقاتها الاجتماعية والثقافية والحضارية... فكانت أكثر عمقا وأكثر تركيزا.

في حين؛ كان الفصل الثاني مخصّصاً لمعالجة إشكالية "حضور الآخر في المدوّنة السردية النهضوية" انصبّ الاهتمام فيه على مفهوم الآخر كمكوّن حضاري في تاريخ الثقافة العربية، بدأنا بإطلالة تاريخية حول علاقة الأنا بالآخر في الفكر العربي القديم، حيث كانت الرؤيا استعلائية تجاه هذا الآخر، لأنّ الذات العربية كانت في كامل قواها الحضارية التي صنعها لها الإسلام، باعتباره أكمل الأديان ومركزها، ومن ثمّ فقد اتّكأت على هذه الركيزة الحضارية -الإسلام- متعالية بنفسها على الشعوب الأخرى، التي رأت فيها تأخراً وانحطاطاً أخلاقياً وعقائدياً وفكرياً، بل وعرقياً في بعض الأحيان، تجلّى ذلك في المرويات السردية الجغرافية والتاريخية، خاصة في كتابات الرحالة والجغرافيين الذين جابوا البلاد شرقاً وغرباً.

ثم تطرّقنا إلى "الآخر في الفكر النهضوي" حيث انقلبت الموازين، وتغيّرت الرؤيا من القوّة إلى الهزيمة، ومن التعالي إلى التبعية، فأصبح الآخر-أوروباً- هو مركز القوّة وموطن الحضارة، والأنا يعيش صدمة حضارية من هذا الآخر، الذي تفوّق عليه فكرياً وحضارياً وتكنولوجياً، وسياسياً ومعرفياً.

بعدها؛ حاولنا أن نرصد كيفية تجلّي هذه الإشكالية في النصوص السردية النهضوية؟ وإلى أي مدى استطاع هؤلاء الكتّاب التعبير عنها برؤيا فنية متعدّدة تتجاوز الرؤيا الواحدة المنغلقة على نفسها. كان المويلحي في "الحديث" أكثر وعياً بالتاريخ من جهة، وبحكمة الرواية من جهة أخرى، حيث طرق القضية بروح علمية تعددية تستحضر كل المواقف والرؤى بشكل متوازن، تاركاً للقارئ حقّ الاختيار والموازنة، بينما كانت النصوص الأخرى ذات توجّه واحد، ورؤيا واحدة هي الرؤيا الانبهارية -في أغلب الأحيان- وهي ذاتها رؤية المؤلف أو الكاتب، ممّا أعاق حركية السرد وحوارته وتعدّده.

أمّا عن الفصل الثالث؛ فقد كان بحثاً عن "الروائية وتداخل الخطابات في المدوّنة السردية النهضوية" حاولنا البحث في الروائية، وكيف تجلّت في نصوص النهضة، من خلال تداخل الخطابات معتمدين على بعض الآليات المنهجية كآلية التناص والتعدّد اللغوي، والتهجين والحوارية وتعدّد الأصوات والتعلق النصي... وغيرها.

بدأنا بالتداخل مع النصّ التراثي باعتبار أن المرحلة الراهنة تقتضي ذلك، حيث لازال الوعي العربي في كل مجالاته المختلفة أسير الرؤيا التقليدية التراثية التي تجلّت فيه بشكل كبير، وجدنا بعض خصوصيات السردية العربية القديمة حاضرة بقوة في هذه المتون من ذلك: الطلب أو تبرير الكتابة، الإسناد، التضمين الحكائي، العجائبية،... إلا أن حضورها لم يكن بشكل اجتراري بقدر ما كان حضور نقد ومساءلة، ومراجعة للكثير من المفاهيم المغلوطة في الثقافة العربية، وهذا ما تلمّسناه بعمق خاصة عند الشدياق ومُحمّد المويلحي.

أما عن التداخل مع النصّ التنويري الإصلاحية النهضوي؛ فقد كانت هذه الأعمال -في حقيقتها- نصوصا تنويرية إصلاحية تعليمية، تسعى إلى تأسيس قيم التنوير والإصلاح، متعاضدة في ذلك رواد التنوير العربي، حيث شكّلت الرؤيا الإصلاحية نقطة بارزة وقضية محورية، ممّا أعاق في أغلب الأحيان تحقّق الروائية إلا نادرا.

وفي الجزء الثالث من هذا الفصل، بحثنا عن التداخل مع السرد التراثي الغربي، باعتبار أن التشابه في المرحلة التاريخية المفصلية لكل منها -عصر النهضة- أفرز نصوصا سردية متشابهة على مستويات عديدة، خاصة إذا علمنا أنّ كلّا منها تعكس مرحلة مفصلية انتقالية من عصر إلى آخر يختلف عنه بشكل كبير، استحضرنّا في هذا السياق نصوصا غربية تمثلت في أعمال رابليه ودونكيشوط لسيرفنتس، حيث مثلت هذه النصوص أعمالا تدشينية لعصر النهضة الغربية من خلال طرح بعض أسس الحداثة؛ كالحريّة والإنسانية والعقلانية، ونقد المقدس من الفكر واللغة، وانتقد بشدّة الفكر القروسطي المتحجّر، كما انتقدت الكنيسة والفكر الديني الذي سيطر خلال القرون الوسطى... في المقابل؛ مثلت نصوص النهضة العربية نصوصا انتقالية من الفكر التقليدي إلى العصر الحديث وبداية النهضة العربية.

وفي الفصل الرابع المعنون بـ"إنطاق المسكوت عنه في المدوّنة السردية النهضوية" حيث جاءت نصوص النهضة أليجوريات محاورة المسكوت عنه، ذلك أن المرحلة التاريخية جدّ حسّاسة، لا تزال القيم التراثية متمركزة، وراسخة يصعب زعزعتها من عليائها، لذلك انتهج هؤلاء الكتاب الكتابة

الرمزية التي لا تصرّح بالقول مباشرة، وإنما تشير بشكل إيحائي رمزي، فكان موضوع التعصّب الديني والسياسي محورا مهمّا في هذه المدوّنة، إضافة إلى التحيّز للماضوية الثقافية والأديبة والفكرية، كما حضر موضوع المرأة بشكل بارز ضمن اهتمامات المرحلة، باعتبار أنّ المرأة ظلّت محاطة بالتكتم والستر في الوعي العربي منذ القديم.

وفي الأخير؛ وضعنا خاتمة للدراسة، حيث شكّلت الخلاصة العامة، وأهم النتائج المتوصل إليها، كما ضمّت بعض الاقتراحات من أجل إعادة النظر في التأسيس الروائي عند العرب، وتجاوز مسلّمة أن "زينب" هي باكورة الجنس الروائي العربي.

ولكي تكون دراستنا ذات تأصيل علمي؛ ووفق رؤيا أكاديمية ممنهجة؛ فقد اعتمدنا منهج النقد الثقافي باعتباره أكثر المناهج مناسبة لموضوع بحثنا، ذلك أنه يبحث في الأنساق الثقافية المضمرّة، وهو ما نحاول كشفه في هذه الدراسة، واستعنا أيضا ببعض الآليات النظرية التي أصل لها رواد نظرية الرواية الغربية كالتنصيص والحوارية والتعدّد الكلامي، فضلا عن آلية التأويل والقراءة في بعض الجزئيات من الدراسة.

وقد استعنا في هذا البحث بمراجع متعددة ومتباينة، في مقدمتها المراجع النقدية المعاصرة المتخصصة في السردية العربية القديمة منها والحديثة مثل: صبري حافظ "تكوين السرد العربي الحديث"، عبد الله إبراهيم "السردية العربية الحديث" فيصل درّاج "نظرية الرواية والرواية العربية"، جابر عصفور "الرواية والاستنارة"، إضافة إلى المراجع الأجنبية المتخصصة في نظرية الرواية ككتابات جورج لوكاتش وميخائيل باختين، فضلا عن بعض المراجع التراثية والمراجع النهضوية، وقد فتحت لنا تلك المراجع آفاقا عديدة، ووسّعت زاوية الرؤيا، وأغنت الدراسة وزادت من ثرائها.

لقد واجهتنا بعض الصعوبات والعوائق - وهذا من طبيعة البحث العلمي بشكل عامّ - التي يمكن إجمالها في صعوبة العثور على مفهوم "الروائية" في هذه النصوص التأسيسية؛ التي لا تزال في أكثرها أسيرة الوعي التقليدي والرؤيا الإصلاحية التي حدّت من تحقّق هذه الروائية إلا في القليل منها. أضف إلى ذلك صعوبة العثور على بعض المصادر، ذلك أن بعض الروايات نشرت في الصحف

والمجلات، ثم لم يهتم بإعادة نشرها فيما بعد، ويعود الفضل إلى الدار المصرية" الهيئة المصرية العامة للكتاب" التي تكفلت بنشر تلك النصوص النادرة، خاصة الروايات النسائية "بديعة وفؤاد" لعفيفة كرم، و"قلب الرجل" للبيبة هاشم.

نتائج الدراسة:

01- إنّ الرواية ليست مجموعة من النصوص التي تمثل لشروط النوع الروائي من حيث البناء الفني فحسب؛ وإنما هي خطاب لتمثيل الرؤى والتطلّعات الاجتماعية والتاريخية.

02- لا يمكن وضع تعريف شامل ودقيق للجنس الروائي، ذلك أنّ الرواية هي نوع أدبي دائم التطوّر والتغيّر، إنّها جنس غير منجز بتعبير أحد المنظرين لها.

03- إذا انطلقنا من رؤية لوسيان غولدمان من أنّ البنية الروائية تناظر البنية الاجتماعية، فإنّ المتأمل في روايات النهضة يجدها تناظر لغويا ونصيا القلق الاجتماعي والثقافي للمجتمع العربي في تلك الفترة، حيث وقف الإنسان العربي حائرا في خياراته الفكرية والحضارية والاجتماعية، متأرجحا بين التراث والحداثة، والأنا والآخر.. وهو ما تجلّى بوضوح في نصوص تلك الفترة التي تراوحت بين الكتابة التراثية -المقامة- والكتابة النثرية الحديثة-الرواية-.

04- إنّ نمط الكتابة التراثية ظلّ متواجدا بقوة في وعي كتّاب عصر النهضة، ممّا أعاق هذه النصوص وأثر في حركيتها السردية، وانتهى بها إلى أن تظلّ أسيرة البلاغة التقليدية الجافة، فبدت بذلك نصوصا باهتة من حيث البناء الفني، ويستثنى من ذلك "حديث عيسى بن هشام" للمويلحي الذي تحرّر بشكل واضح من هذه العوائق، واستطاع -إلى حدّ بعيد- أن يقترب من النشر الروائي الحديث بناء ورؤيا.

05- تأسست الأعمال الروائية النهضوية في ظلّ مآزق الوعي الاجتماعي والتاريخي الغائبين، لكنها تشكّلت أيضا في فضاء نخبة برجوازية متحوّلة شرعت في مراجعة الماضي ونقده، ومساءلة الحاضر، والطموح نحو المستقبل؛ وبناء مجتمع بأسس جديدة ورؤيا مختلفة، وطريقة تفكير مغايرة.

06- إنّ الموقف الإصلاحي التنويري الذي بدا من أهم منطلقات هذه النصوص ومرجعياتها الفكرية، هو الذي تحكّم في توجيه الرؤيا السردية وجهة نمطية يهيمن عليها الراوي العالم بكل شيء، وتحركها عناصر سردية ديكورية (المكان والزمان، الشخصيات، الأحداث...) باعتبارها قنوات وأدوات لتمير الخطاب، ووسيلة إقناعية بضرورة التحوّل الفكري والثقافي، وبذلك لم تكن هذه العناصر محفّزات سردية، أو فاعليات نصية تسهم في إثراء النص وتزيد من كثافته التخيلية والجمالية.

07- لم تكن الثقافة العربية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر على قدر من الاستعداد لتقبّل الوعي الروائي، ولا مستوفية الشروط العامّة لاحتضانه، لذلك جاءت هذه النصوص متواضعة من حيث الطاقة الجمالية.

08- بدت هذه النصوص هجينة؛ حضر فيها النصّ التراثي العربي ببلاغة العتيقة، والنص النهضوي التنويري بأفكاره الإصلاحية ونبرته الخطابية، والنص السردية الغربي ببعض خصوصياته الفنيّة، وهو ما جعل منها فضاء متعدّدا، وهو ما مهّد إلى تهيئة الفضاء السوسيوثقافي الكفيل باستيعاب الجنس الروائي.

09- إنّ تقييم رواية النهضة بمعيّار إبداعي خارجي لا يولي اهتماما للخصوصية الثقافية، لا بدّ أن يوصل إلى نتائج غير واضحة وغير دقيقة، كما أن قياس هذه الروايات بنموذج جمالي بعينه باعتباره معيارا مطلقا؛ فيه تجاوز للوعي التاريخي، وهدر للخصوصية الثقافية.

10- لم يتجاوز حضور الآخر في المدونة السردية النهضوية النظرة الانبهارية التي سيطرت على وعي هؤلاء الكتاب، لذلك بدت تلك النصوص في طرحها هذه القضية المهمّة؛ ذات رؤيا موحّدة في أغلبها تمثّلت في الإعجاب بالآخر، خاصّة ما تعلق بإنجازاته العلمية والتكنولوجية وهياكله

الاجتماعية، فحضر بذلك صوت واحد في النص هو صوت المؤلف، يستثنى من ذلك "الحديث" الذي استطاع أن يطرح القضية بشيء من الروح الإبداعية المتحررة، حيث حضرت المواقف المختلفة والرؤى المتباينة وإن كان صوت الراوي بارزا ومهيمنًا على بقية الأصوات.

11- لقد عمد المولحي إلى كسر النخبوية في الكتابة الأدبية، فخلافا للنصوص المعاصرة له (التخليص، علم الدين، المدن الثلاث، غابة الحق...) بدأ الحديث صوتا متمردا، ورفضاً لأسلوب الطرح الفلسفي المجرد الذي انطلق منه هؤلاء.

12- يتصل كتاب "الساق على الساق" بالجنس الروائي عن طريق آلية السخرية كما تحققت في كتابات رابليه وسيرفنتس، فالكتاب-بتعبير رضوى عاشور- منجم من أساليب الفكاهة والسخرية، إذ لا يكاد يترك أداة من أدواتها إلا استخدمها، وفيه الدعابة والظرف والمرح الخفيف، وفيه الطعن والتهكم والهجاء والهزء الشرس، وفيه المفارقات الضمنية والمحاكاة الكاريكاتيرية والتلميح والتلويح وأشكال بلا حصر من التورية، وفيه العبث والهذر والتلاعب بالألفاظ والمعاني، وفيه أيضا المجون والبذاء والنقد العنيف، إنه حقل من المفارقات اللغوية التي تضمحل دلالات السخرية والتهكم، مما يستوجب إعادة النظر في هذا الإرث الأدبي المغمور.

13- نعتقد أن النص الروائي النهضوي ببنيته المهتزة ومضامينه الفكرية المذبذبة، هو استجابة طبيعية للمرحلة التاريخية بكل سياقاتها الثقافية، فالمضامين الجديدة تستدعي أشكالا جديدة، ومن ثمّ يمكن اعتبار المجتمع العربي في حقبة النهضة بدأ يسائل مسلماته التقليدية، ويراجع هياكل الثقافة القائمة أو السائدة متحررا من شرقة المقدس والثابت، طامحا إلى الفردية والاستقلالية وهذه هي الشروط الأساسية لتشكّل الجنس الروائي وولادته.

14- تبيّن لنا -من خلال الدراسة- أنّ نصّ الحديث أقرب النصوص النهضوية للروائية، يدلّ على ذلك الطابع الحوارى فيه والمتمثّل في تعدّد اللهجات الاجتماعية، ومن ثمّ تعدّد الرؤى، حيث حضرت اللهجة المصرية مع اللغة الأجنبية واللغة الرسمية التراثية، وفي ذلك استحضار للفواعل الاجتماعية بمواقفها الإيديولوجية المتصارعة والمتناقضة، لكن لا يمكن أن نطلق على هذا التعدّد على مستوى اللغة

والرؤيا بأنه مظهر من مظاهر الحوارية كما أصّل لها ميخائيل باختين من خلال أعمال ديستوفسكي، وذلك بسبب هيمنة صوت المؤلف على باقي الأصوات الأخرى، وهو ما عرقل العملية السردية في هذا العمل في الكثير من المحطات.

15- تنحصر روائية نصوص النهضة في التخلّص من الرتابة الأسلوبية ذات الصيغة التراثية، والتخفيف من قبضة البلاغة القديمة، والاقتراب من الأسلوب النثري البسيط والمرن، الذي يلامس اليومي والمعيش والعادي، وفي ذلك تكسير لنخبوية لغة الشعر المتعالية، وانفتاح على الروح الروائية المتحرّرة.

16- في مطلع عصر النهضة- وبحكم تحولات عديدة ومختلفة- شكّلت مدينة عربية مرتبكة ومتوتّرة، فكان الخطاب الروائي مرتبكا، يواجه قلقا والتباسا على مستوى الرؤيا والشكل على حدّ سواء.

17- استطاعت نصوص النهضة استنادا إلى تقنية الأليجوريا أن تفرّج باب المسكوت عنه من الاستبداد السياسي والتعصّب العقائدي، وأن تطرح بعض القضايا المضمرة في الوعي العربي كقضية الحبّ والعلاقات العاطفية، وقضية المرأة باعتبارها صوتا مغموعا في المجتمع العربي، حيث شكّلت مثل هذه القضايا موضوعا خصبا فنيّا.

18- إذا كانت نصوص من مثل مقامات اليازجي وعلم الدين لعلي مبارك وغيرها؛ قد سعوا إلى إحياء المقامة تماشيا مع موضوعة إحياء التراث التي شاعت في تلك الفترة، فإن المويلحي- والشدياق إلى حدّ ما- قد تجاوز ذلك، بواسطة محاوره المقامة وحديث عيسى بن هشام فإنه ينزع إلى التجاوز والحرق بدل التفوق والاجترار، لقد أراد أن يمتحن هذا الجنس أمام إكراهات العصر، وفي ذلك نقد ومساءلة للفكر العربي التقليدي.

هذه بعض النتائج المتوصل إليها من خلال هذه الدراسة، ونقترح أخيرا إعادة النظر في مثل هذه النصوص التي نراها بحق الأرضية التأسيسية لظهور الجنس الروائي العربي، ولذلك نرى أنّه يمكن إعادة النظر في مسلّمة أن "زينب" هي باكورة الجنس الروائي العربي، وتجاوز التصوّرات البلاغية في هذه

النصوص، حيث عمد النقد الأدبي إلى حصر دراستها في الأبعاد البلاغية والزخارف اللغوية، والمضامين الإيديولوجية والفكرية المضمرة، دون النظر في الخصوصية الجماليّة والقدرات الفنية التي تتمتع بها هذه النصوص.

نأمل أخيراً؛ أن يكون البحث إضافة ذات قيمة علمية إلى المكتبة العربية، وإلى الدراسات السردية خصوصاً.